سُلَيمانُ التَّاجرُ
سِندِبادُ البِحارِ[1]
(٢٣٢هـ)

أَعزَّائي وأَحبَّائي:

سُليمانُ التَّاجرُ، سِندبادُ البِحارِ، الرَّحالَةُ البحَّارُ الَّذي زَخرَتْ رِحلَتُهُ البَحريَّةُ بِمُشاهداتِهِ الغَريبَةِ والعَجيبَةِ، واحدٌ مِنْ رُبانِ البِحارِ العَربِ المَشهورينَ والمَعروفينَ الَّذِينَ أَسهَموا في ارتقاءِ المَعارِفِ والمَعلوماتِ في عِلمِ الملاحَةِ البَحريَّةِ وفي نُشوءِ أَدبِ الرِّحلاتِ، حَيثُ إِنَّ رِحلاتِهِ إِلى بلادِ الهندِ والصِّينِ كانَ لَها عَظيمُ الأَثرِ في قِصصِ أَلفِ لَيلَةٍ ولَيلةٍ، وقِصَصِ السَّندبادِ البَحريِّ وغَيرِها مِنَ القِصَصِ والرِّواياتِ والحِكاياتِ الَّتِي امتَزَجَتْ بِالخَيالِ والأسطورَةِ في العَصرِ الحَديثِ.

وتَأتي الأَهميَّةُ العِلميَّةُ لِرحلَةِ البَحارِ العَربيِّ سُليمانَ التَّاجِرِ مِنْ خلالِ وصفِهِ لِلأَماكِنِ، والبحارِ، والشَّواطِئِ الَّتِي زارَها، وكَذَلِكَ مِنْ خِلالِ وصفِهِ أَيضاً لِلرياحِ والأَنواءِ

(1) لم يذكر المؤرخون تاريخ ميلاده ووفاته.

والأَمطارِ، وحَركَةِ المَدِّ والجَزرِ لِلبِحارِ الَّتِي عَبَرَها ومَرَّ بِها بِدِقَّةٍ علميَّةٍ مُتناهيَةٍ شَهدَ لَهُ بِذَلِكَ عُلَماءُ البِحارِ الأُوربيونَ في العَصرِ الحَديثِ.

كَما أَنَّ رِحلَةَ بَحارِنا ـ سِندباد البحارِ ـ لَمْ تَخلُ مِنَ الطَّرافَةِ والحِكمَةِ وهوَ يَصفُ فيها عاداتِ وتَقاليد الشُّعوبِ الَّتِي شَاهدَها ومَرَّ بِها في الهِندِ والصِّينِ، ومَكانَةَ الجالياتِ العَربيَّةِ، وأَوضاعَ المُسلمينَ فيها، فَقَدْ تَداخَلَ عِلمُ البِحارِ مَعَ عِلمِ التَّاريخِ وعلمُ الاجتماعِ في رِحلَتِهِ هَذهِ.

ولَكنْ تَبقَى القيمَةُ العِلميَّةُ الحَقيقيَّةُ لِرحلَةِ سُليمانَ التَّاجِرِ مِنْ خِلالِ ما دَوَّنَهُ مِنْ ظَواهرَ طَبيعيَّةٍ وجُغرافيَّةٍ كانَتْ بِمَثابَةِ الدَّليلِ والمُرشدِ لِلبَحارَةِ الَّذِينَ أَتوا بَعدهُ في خَوضِ عالَمِ البِحارِ إِلى تِلكَ الأَماكِنِ والأَصقاعِ والبُلدانِ.

ولِهذا وصَفَهُ الدَّارسونَ والباحِثونَ بِأَنهُ سِندبادُ البِحارِ، وهَوَ حَفيٌّ بِهذا اللَّقبِ وخَليقٌ بِهِ كَما سَيَمرُّ مَعنا في حِكايَةِ قِصَّتِهِ.

فَمَنْ هُوَ سُليمانُ التَّاجِرُ؟

❁ ❁ ❁

لَمْ تَروِ لَنا كُتُبُ التَّاريخِ شَيئاً عَنْ تَفاصيلِ حياتِهِ أَو عَنْ ولادَتِهِ أو نَشأَتِهِ، وكُلُّ ما ذُكِرَ عَنهُ أَنَّهُ بَحارٌ عَربيٌّ مِنَ العِراقِ عاشَ في القَرنِ الثَّالثِ الهجريِّ، وأَنَّهُ قامَ بِرحلَتِهِ البَحريَّةِ مِنْ سَواحلِ الخليجِ العَربيِّ إِلى الهندِ والصِّينِ عامَ (232) هجريَّةً، وأَنَّهُ قامَ بِتَدوينِ رِحلَتِهِ، ثُمَّ أَتَى مِنْ بَعدهِ رَحالَةٌ يُدعَى أَبا زَيدٍ السِّيرافيَّ كَتَبَ تَفاصيلَ رِحلَةِ ومُشاهداتِ سُلَيمانَ

التَّاجرِ، وعُرفَتْ بِرحلَةِ أَبي زَيدٍ السِّيرافيِّ. وبِناءً عَلى ذَلِكَ يَكونُ السِّيرافيُّ قَدْ كَتَبَ رِحلَةَ سُليمانَ التَّاجرِ كَما رَواها لَهُ سُليمانُ ذاتُهُ في ذَلِكَ الوَقتِ.

ويَذكُرُ المُؤرِخُ المَسعوديُّ أَنَّهُ التَقَى بِالسِّيرافيِّ في مَدينَةِ البَصرة في العراقِ عامَ (303) هجريَّةً، وأَفادَنا المَسعوديُّ بِذَلِكَ، وأَنَّهُ عَرفَ اسْمَ السِّيرافيِّ الكَاملَ وهوَ: أَبو زَيدٍ الحَسنُ بنُ يَزيدَ بنِ عَمرَ بنِ زَيدٍ بنِ مُحَمَّدٍ بنِ مَزدٍ بنِ ساسياد، وأَصلُهُ مِنْ سيرف، لَكنَّهُ غادرها وأَقامَ في البَصرَةِ قبلَ عامِ (232) هجريَّةً. ووَصَفَهُ المَسعوديُّ بِأَنَّهُ مِنْ أَهلِ التَّحصيلِ والتَّميزِ.

فَكلامُ المَسعوديِّ يُوحي لَنا أَنَّ أَبا زَيدٍ السِّيرافيَّ كانَ عالِماً وأَديباً ومُتَتَبِّعاً لِشُؤونِ الكُتُبِ، ولَمْ يَكُنْ مُغامراً أَو تاجراً أَو بَحاراً جَواباً لِلآفاقِ، أَو خواضاً لِعالَمِ البِحارِ، وإِنَّما كَتَبَ رِحلَةَ سُليمانَ التَّاجرِ وهَذَّبَها حَسَبَ ما رَواها لَهُ سُليمانُ التَّاجِرُ بِلسانِهِ وبَيانِهِ.

يَصفُ السِّيرافيُّ رِحلَةَ سُليمانَ التَّاجرِ، والمَراحلَ البَحريَّةَ بينَ سيراف ومسقط، ومِنْ هُناكَ إِلى مالابار، ثُمَّ عَبورَهُ جَزيرةَ سيلانَ وخليجَ البَنغالِ حَتَّى جَزيرَةِ لنجبالوس، ومِنْ هُناكَ إِلى كالابارَ عَلى سَاحلِ الملايو الغَربيِّ، ثُمَّ إِلى جَزيرَةِ تيومن إِلى الجَنوبِ الغَربيِّ مِنْ مَلقا، ومِنها إِلى سايجونَ ثُمَّ إِلى جَزيرَةِ هانيان، فَإِلى أَرضِ الصِّينِ في ميناءِ خانَقوا أَو كانتون.

جَمَعَ السِّيرافي رِحلَةَ سُليمانَ التَّاجرِ في هَذا الكتابِ الشَّائقِ والمُمتعِ بِأسلوبِ السَّردِ القَصصيِّ المَمزوجِ بِالرِّواياتِ الَّتِي تُمَثِّلُ مُشاهداتِ سُليمانَ في عالَمِ البِحارِ وما رآهُ مِنْ

حَيواناتٍ بَحريَّةٍ، وما وصَفَهُ بِدقَّةٍ لِلطُّرقِ التِّجاريَّةِ البَحريَّةِ، والعاداتِ والنُّظمِ، مَعَ ذكرِ المُنتَجاتِ، ودراسةٍ لِلعلاقاتِ الصِّينيَّةِ الإِسلاميَّةِ، والحَركَةِ التِّجاريَّةِ في مَوانئ البِلادِ الَّتي نَزلَ فيها.

❋ ❋ ❋

انطَلَقَ سُليمانُ التَّاجرُ في رِحلَتِهِ مِنْ مَدينَةِ سيراف الواقعَةِ عَلى السَّاحلِ الفارسيِّ في الخَليجِ العَربيِّ، وأَبحرَ في سَفينَتِهِ إِلى مَرفئ مَدينَةِ مَسقَط عَلى سَواحلِ عُمانَ المُطِلَّةِ عَلى بَحرِ العَربِ.

ومَدينَةُ سيراف في بِلادِ فارس، مِنْ مُدنِ سابور، كانَ مُعظَمُ سُكانِها مِنَ العَربِ، ويَذكرُ الحَميريُّ في كِتابِهِ «الرَّوضِ المِعطارِ في خَبرِ الأَقطارِ»:

«إِنَّ أَهلَها كانوا مُولَعينَ بِكسبِ المالِ، وكانوا مِنْ أَكثَرِ عبادِ اللهِ تَغَرُّباً ومَخراً إِلى الآفاقِ، حَتَّى إِنَّ الواحدَ مِنهُمْ يَتَجَوَّلُ عشرينَ عاماً لا يَرجعُ إِلى أَهلِهِ ولا يَكتَرثُ بِمنْ خَلفَهُ، كما كانَ أَهلُها يُنفقونَ كَثيراً في عمارةِ الأَبنيَةِ وضروبِ التَّحسينِ والتَّحصينِ، وفواكِهُهُمْ ومياهُهُمْ تَصلُ إِليهِمْ مِنْ جَبلٍ مُشرفٍ عَليهِمْ يُطلُّ عَلى البَحرِ، وليسَ فيها زَرعٌ ولا ضَرعٌ، وهيَ شَديدةُ الحرِّ جداً، وهيَ مَرفأٌ لِلسُّفنِ، ومِنها يَتَجَهَّزُ التُّجارُ إِلى عَدن وعُمانَ والصِّينِ والهندِ، حيثُ كانَتِ البَضائعُ تَأتيها مِنْ بِلادِ العراقِ والشَّامِ ومنْ بلادِ فارس والتُّركِ وغَيرِها، ويُحملُها التُّجارُ إِلى الآفاقِ».

أَمَّا مَدينَةُ مَسقَط فَهيَ مِيناءٌ عَلى السَّاحلِ العُماني كانَ يَستَقي مِنْها أَربابُ المراكبِ

الماءَ مِنْ آبارٍ هُناكَ عَذبةٍ. ويقولُ صَاحبُ كتابِ «أَخبارِ الصِّينِ والهندِ»: «إنَّ المراكبَ القَادمَةَ مِنْ داخلِ الخليجِ العَربيِّ كانَتْ تَتزوَّدُ بِالماءِ منْ (مسقط)، وهيَ في طَريقِها إلى بَحرِ الهندِ. وسُميَتْ (مسقطاً) و(المسقط) لأنَّ المراكبَ كانَتْ تَسقُطُ مِنْها إلى عَرضِ البَحرِ، أي: تُغادرُ السَّاحلَ، وتَنطلقُ إلى عرضِ البَحرِ في طريقِها إلى الهندِ والصِّينِ».

❋ ❋ ❋

مِنْ مَسقَط اتَّجَهَ سُليمانُ التَّاجرُ مُبحراً إلى الهندِ والصِّينِ، مارّاً بِالجُزرِ والخُلجانِ والمَوانِئِ الَّتِي تَقَعُ عَلَى طَريقِ وجهَتِهِ، وقَدْ وصَفَ مُشاهداتِهِ وما رَآهُ مِنْ إنسانٍ وحَيوانٍ ونَباتٍ وجَمادٍ، فَفي الفَصلِ الأَوَّلِ مَثَلاً ـ وهوَ بِعنوانِ «باب في البَحرِ الَّذِي بينَ بلادِ الهِندِ والسِّندِ ونَموز وماغوز، وجبالِ قاف، وبلادِ سَرنديب» يقولُ:

«وفي هَذا البَحرِ سَمكَةٌ اصْطَدْناها يكونُ طُولُها عِشرينَ ذِراعاً، فَشَقَقْنا بَطنَها فَأَخْرَجْنا مِنْها أيضاً سَمكةً مِنْ جِنسِها، ثُم شَقَقْنا بَطنَ الثَّانيةِ فَإذا في بَطنِها مِثلُها، وكُلُّ هَذا حَيٌّ يَضْطَربُ يُشبِهُ بَعضُهُ بعضاً في الصُّورةِ».

وفي فَصلٍ بِعنوانِ: «أَخبارِ بِلادِ الهندِ والصِّينِ ومُلوكِها» يقولُ: «أهلُ الهندِ والصِّينِ مجُمعونَ على أَن مُلوكَ الدُّنيا المَعدودينَ أربعةٌ، فَأَوَّلُ مَنْ يَعدونَ مِنَ الأَربعةِ:

مَلكُ العَربِ، وهوَ عِندَهُم إجماعٌ لا اختلافَ بَينَهُم فيهِ أَنَّهُ مَلكُ أَعظمِ المُلوكِ وأَكثرُهُمْ مالاً وأَبهاهُم جَمالاً، وأَنَّهُ مَلكُ الدِّينِ الكَبيرُ الَّذِي ليسَ فَوقَهُ شَيءٌ.

ثُمَّ يُعدُّ مَلكُ الصِّينِ نَفسَهُ بَعدَ مَلكِ العَربِ، ثُمَّ مَلكُ الرُّومِ، ثُمَّ بَلهرا مَلكُ الهندِ».

فَالصِّينيونَ كانوا يَعتَقدونَ بِعظمَةِ العَربِ والمَكانَةِ السَّاميَّةِ الَّتِي يَتَبوَؤُها خَليفَةُ المُسلمينَ بينَ مُلوكِ الأَرضِ جَميعاً في تِلكَ الفَترَةِ؛ لأَنَّ العلاقاتِ بينَ العَربِ المُسلمينَ والصِّينيينَ قَديمَةٌ جداً، وكانَ ـ الخَليفةُ ـ أَوَّلَ سَفيرٍ لِلعربِ في بِلادِ الصِّينِ مُنذُ العَهدِ الأُمَويِّ لِرِعايَةِ شُؤُونِ الجاليَةِ العَربيَّةِ والإِسلاميَّةِ هُناكَ، فَقَدْ تَحدَّثَ عَنْ تَواجُدِ التُّجارِ العَربِ بِكثرَةٍ في بِلادِ الهندِ والصِّينِ، وغالبُهُمْ مِنَ العِراقِ والجزيرَةِ العَربيَّةِ، كما أَنَّ بيتَ المالِ في مَدينَةِ خانقوا السَّاحليةِ في الصِّينِ تَحتَ رِعايَةِ والٍ عَربيٍّ مُسلمٍ يُعَينُهُ إِمبَراطورُ الصِّينِ، حَتَّى تَجتَمعَ البَضائِعُ القادمَةُ مِنَ السُّفنِ الأُخرى المُحَمَّلَةِ مِنَ الهندِ والمَنطقَةِ العَربيَّةِ، فَتُعرَضُ جَميعُ تِلكَ البَضائِعِ عَلى التُّجارِ الصِّينيينَ القادمينَ مِنْ جَميعِ المَناطِقِ في بِلادِهِمْ.

ويُسهبُ الرَّحالَةُ سُليمانُ التَّاجرُ في ذِكرِ فَواكِهِ تِلكَ البُلدانِ وأَديانِهِمْ وعاداتِهِمُ الغَريبَةِ، كَحرقِ الزَّوجاتِ في الهندِ بَعدَ مَوتِ أَزواجِهن. ومِمَّا ذَكَرهُ أَنَّ مَلكَ الصِّينِ في تِلكَ الأَثناءِ كانَ لا يَقبَلُ أَيَّ شَكوى شَفَهيَّةٍ، بَلْ يَجبُ أَنْ تكونَ مَكتوبَةً بِشَكلٍ مُفَصَّلٍ وأُسلوبٍ جَميلٍ، حيثُ إِنَّ غالبيَّةَ أَهلِ الصِّينِ يَعرفونَ القِراءَةَ والكِتابَةَ.

كما تَحَدَّثَ عَنْ شَرابٍ يَشربُهُ أَهلُ الصِّينِ مِنَ العشبِ المَغلي بِالماءِ ويُسَمونَهُ (ساخ) أَي: شَرابُ الشَّاي، وبِهذا يَكونُ أَوَّلَ عالِمٍ عَربيٍّ مُسلمٍ يَذكُرُ الشَّاي في وثيقةٍ رَسميَّةٍ.

كَما يَروي أَنَّ أَوَّلَ جَوازاتِ سَفرٍ اسْتُخدِمَتْ في الصِّينِ، حَيثُ كانَ الولاةُ يُصدرونَ أَوراقاً لِلمُسافرينَ تَتَضمَّنُ أَسماءَهُمْ وأَعمارَهُمْ، وأَسماءَ وأَعمارَ مَنْ مَعَهُمْ، وتتَضمَّنُ الأَوراقُ تَوصيَةً مِنْ إمبراطورِ البِلادِ بِتَسهيلِ سَفَرِهِمْ.

كَما ذَكَرَ عَنْ أَهلِ الهندِ أَنَّ الشَّخصَ الَّذِي يُريدُ الزَّواجَ يَتَعَيَّنُ عَليهِ قَتْلَ رجلٍ مِنَ الأَعداءِ، فَمَنْ قَتلَ رجلاً يَتزوَّجُ واحدةً، ومَنْ قَتلَ اثنينِ يَتَزوَّجُ اثنتينِ، ومَنْ قَتلَ خَمسينَ رَجلاً يَتَزَوَّجُ خَمسينَ زوجَةً.

❋ ❋ ❋

ووصفَ سُليمانُ التَّاجرُ سَمَكَ الحوتِ الكَبيرِ فَقالَ:

«رَأَيْتُ سَمكاً مثلَ الشِّراعِ، رُبَّما رَفعَ رأَسَهُ فَتراهُ كالشَّيءِ العَظيمِ، ورُبَّما يَقَعُ في الماءِ مِنْ فيهِ، فَيكونُ كَالمنارَةِ العَظيمَةِ. فَإِذا سَكنَ البَحرُ اجتَمَعَ السَّمكُ فَحواهُ بِذَنَبِهِ، ثُمَّ فَتحَ فاهُ فَيُرى في جَوفِهِ يَفيضُ كَأَنَّهُ يَفيضُ مِنْ بِئرٍ. والمَركبُ الَّتِي تَكونُ في البَحرِ تَخافُهُ، فَهُمْ يَضربونَ في اللَّيلِ بِنواقيسَ خاصَّةٍ مَخافَةَ أَنْ يتكئَ عَلى المَركبِ فَيُغرِقهُ».

ويَتَحدَّثُ عَنْ أَنواءِ البَحرِ فَيقولُ:

«ورُبَّما رُئيَ في هذا البَحرِ سَحابٌ أَبيضُ يُظِلُّ المَركبَ فَيَشرَعُ مِنهُ لِسانٌ طَويلٌ، رَقيقٌ، حَتَّى يَلصقَ ذَلكَ اللِّسانُ بِماءِ البَحرِ، فَيغلي لَهُ ماءُ البَحرِ، فلا أَدري أَيستَقي السَّحابُ مِنَ البَحرِ أَمْ ماذا؟».

أَمَّا المَعلوماتُ العِلميَّةُ الَّتِي تَتَعلَّقُ بِعلمِ المِلاحَةِ البَحريَّةِ فَقَدْ أَورَدَ مِنها طَرَفاً هامّاً، تُعتبَرُ مَرجعاً لِمَنْ أَرادَ خَوضَ تِلكَ البِحارِ وسُلوكِ طُرقِ السَّلامَةِ والنَّجاةِ فيها، فَقَدْ كَتَبَ مَعلوماتٍ وبَياناتٍ عَنْ حَركَةِ الرِّياحِ والأَنواءِ والأَمواجِ، وطَريقَةِ تَفاديها وطُرقِ الأَسفارِ إِلى الصِّينِ والهندِ.

وقامَ سُليمانُ التَّاجرُ بِتَحديدِ المَسافاتِ والقياساتِ بِالفَراسخِ والأَيام واللَّيالي بينَ ميناءِ مَدينَةِ سيراف، وميناءِ مَدينَةِ خانقوا في الصينِ قِياساً علميّاً دَقيقاً، وتَحدَّثَ عَنْ مَمالِكِ الهندِ الرَّئيسيَّةِ والصَّغيرَةِ، وعَنْ تَبايُنِ التَّقاليدِ بينَ الصِّينِ والهِندِ، وعَنِ التَّنظيماتِ السِّياسيَّةِ والاقتصاديَّةِ والاجتماعيَّةِ في الصِّينِ، وقارَنَ بينَ أَنهارِ الهندِ والصِّينِ وبينَ نَهرَي دَجلَةَ والفُراتِ، وتَحدَّثَ عَنِ الفُروقِ الاجتماعيَّةِ بينَ تَقاليدِ وعاداتِ سُكانِ الهندِ وسُكانِ الصِّينِ فيما يَخصُّ الزَّواجَ، والطَّعامَ، والعُقوباتِ والحبسَ والقَضاءَ، والعبادَةَ، ومنازلَ السَّكَنِ، وغيرَها مِنَ العاداتِ والتَّقاليدِ.

ومِنَ المُفيدِ ذِكرُهُ في خِتامِ حَديثِنا عَنْ سُليمانَ التَّاجرِ ورِحلَتِهِ أَنْ نَذكُرَ أَنَّ المُستَشرِقَ الفَرَنْسيَّ «فيرن» قَدْ فَحصَ ما أَورَدَهُ سُليمانُ التَّاجرُ في رِحلَتِهِ عَلى ضَوءِ الخَرائِطِ الحَديثَةِ، فَوَجدَها مِنْ حَيثُ الدِّقَّةُ والأَمانَةُ العِلميَّةُ بِمكانَةٍ تُذكَرُ لَهُ عَلى مَرِّ العُصورِ والأَجيالِ. يَقولُ «فيرن» وهو يَمدحُ سُليمانَ التَّاجرَ، ويَحمدُ مِنهُ جُهدَهُ العلميَّ: «وهو خَيرُ مِثالٍ لِلتُّجارِ العَربِ والفُرسِ الَّذِينَ تَوَجَّهوا إِلى الصِّينِ».

الأَسئِلَةُ وَالمُنَاقَشَةُ

1 ـ مَنْ يَكونُ سُليمانُ التَّاجرُ؟

2 ـ مَنْ هوَ أَبو زَيدٍ السِّيرافيُّ؟

3 ـ بِماذا كانَ أَهلُ سيراف مولَعينَ، وماذا كانوا يَفعلونَ؟

4 ـ لِماذا سُميَتْ مَدينَةُ مَسقَط بِهذا الاسمِ؟

5 ـ بِماذا كانَ يَعتَقِدُ الصِّينيونَ؟

6 ـ ماذا كانَ ولاةُ الصِّينِ يُصدرونَ؟

7 ـ ماذا حَدَّدَ سُليمانُ التَّاجرُ؟

8 ـ كيفَ وجدَ فيرن ما أَوردَهُ سُليمانُ التَّاجرُ؟